أقوال في البداية

* «لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمري أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[١].

* كان من أعاظم سلاطين بني عثمان، وهو الملك الفاضل النبيل، العظيم الجليل، أعظم الملوك جهادًا وأقواهم إقدامًا واجتهادًا، وأثبتهم جأشًا وفؤادًا، وأكثرهم توكلاً على الله واعتمادًا، وهو الذي أسس ملك بني عثمان، وقنَّن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان، وله مناقب جميلة، ومزايا فاضلة جليلة، وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام، ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام. («شذرات الذهب» لابن العماد)

قال الفاتح يوصي ابنه: «خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي، واحذو حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله، ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو، فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك».

المولد والنشأة ١٤٣٢م-١٤٨١م

ولد السلطان محمد الفاتح في سنة ٨٣٣هـ[٢]، وكان ميلاده يوافق الثلاثون من شهر مارس عام ١٤٣٢م. وكان ميلاده بعد بداية النهاية للعصور الوسطى[٣]، إذا عرفنا أن العصور الوسطى انتهت بفتح القسطنطينية وبدأ العصر الحديث مع فتحها في عام ١٤٥٣م على يد هذا السلطان.

---

(١) رواه الإمام أحمد، والحاكم، والحديث ضعيف السند، وإن كانت بشارة الفتح ثابتة.

(٢) «التحفة الحليمية» (ص٩١) طبعة مؤسسة الكتب الثقافية.

(٣) العصور الوسطى، أو عصر النهضة، أو العصر الحديث .. كلها مصطلحات تنطبق على أوروبا وحدها، ولا يجوز للمسلمين أن يطلقوها هكذا.

وقد خضع السلطان محمد الفاتح في طفولته لنظام تربية صارم شأن أي أمير عثماني، وكان ذلك تحت إشراف مجموعة من علماء عصره المعروفين، وقد أخضعه شيوخه إلى دراسة أكاديمية للعلوم العصرية ـ آنذاك ـ من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية[١].

وفي ولاية والده مراد الثاني فإن السلطان محمد الفاتح اشترك في الحروب التي كان يشنّها والده ضد أوربا أو حين كان يتصدى لهم إذا اعتدوا على الدولة العثمانية.

وعين محمد الفاتح أميرًا على مغنيسيا تحت إشراف مجموعة من علماء الدين، وكان الفاتح محظوظًا إذ كان المشرفون عليه مجموعة من أعظم علماء عصره وفي مقدمتهم الشيخ آق شمس الدين والملا الكوراني (عالم الدين عند العثمانيين الأوائل، وكان الكوراني هذا عالمًا موسوعيًا في شتى علوم المعرفة في عصره.

وقد تأثر محمد الفاتح بمجموعة العلماء هذه، التي ساهمت في تشكيل شخصية الأمير الصغير، فقد نجح هؤلاء العلماء في تشكيل اتجاهات محمد الفاتح الثقافية والسياسية والعسكرية.

وكان الشيخ آق شمس الدين صارمًا مع الأمير محمد الفاتح حتى إن السلطان محمد الفاتح قال وهو سلطان لأحد وزرائه عن شيخه آق شمس الدين: «إن احترامي لهذا الشيخ احترام يأخذ بمجامع نفسي، وأنا ماثل في حضرته مضطربًا ويداي ترتعشان»[٢].

---

(١) د/ محمد حرب «العثمانيون في التاريخ» (ص٨).

(٢) «العثمانيون» د/ محمد حرب.

ودرس السلطان محمد الفاتح اللغات الإسلامية الثلاثة، وهي العربية والفارسية والتركية، وقد كانت هذه اللغات ضرورة لكل مثقف في هذا العصر الذي عاش فيه محمد الفاتح.

وكان محمد الفاتح شاعرًا له ديوان شعر بالتركية، وله بيت مشهور يقول فيه: «نيتي هي الامتثال للأمر الإلهي، جاهدوا في سبيل الله، وحماسي إنما هو حماس في سبيل الله».

* ولم يكتف محمد الفاتح باللغات الإسلامية الثلاث، بل أضاف إليها ثلاثة أخرى هي اللاتينية واليونانية والصربية ـ وبذلك جمع ست لغات ـ ولاشك أن لهذه اللغات أهمية كبيرة لأمير يعد لقيادة دولة عظمى كالدولة العثمانية.

وتعدُّ فترة إمارة محمد الفاتح في مغنيسيا من الفترات الهامة في حياته، وذلك بفضل مجموعة من أساتذته، فقد أصبح بفضلهم من أكثر الأمراء العثمانين وعيًا ومعرفة في دراسة علوم التاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية، خاصة وأن أساتذته وجهوا اهتمامه إلى دراسة الشخصيات الكبيرة التي أثرت في مجرى التاريخ، وأبانوا له عن جوانب عظيمة في تلك الشخصيات، كما أوضحوا له نقاط الضعف فيها أملاً في أن يكون أميرهم ذات يوم أكثر الحكام عبقرية، وقد لعب الشيخ آق شمس الدين دورًا كبيرًا في تكوين شخصية محمد الفاتح، ويذكر المؤرخون[1]، أنه استطاع أن يبث فيه منذ صغره أمرين هما اللذان جعلاً منه فاتحًا، وهما:

ـ مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

---

(١) د/ محمد حرب ـ في كتابه ـ «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٦٩).

ـ الإيحاء لمحمد دومًا منذ صغره بأنه هو الأمير المقصود بالحديث النبوي الشريف: «لتفتحن القسطنطينية؛ فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[١].

كانت حياة محمد الفاتح زاخرة بالعلم والحرب، فمن الناحية العلمية كان الفاتح يجيد عدة لغات بجانب لغته التركية، كما ذكرنا، وأضاف إلى ذلك اللغة العبرية.

ولذلك فقد قام محمد الفاتح بتوسيع فكرة المدرسة العثمانية؛ فأنشأ المدارس الكبيرة، وأدخل فيها العلوم العلمية العملية إلى جانب العلوم الدينية، وبفضل الفاتح أصبحت الدولة العثمانية في عهده الدولة الأولى في العالم في بناء السفن والمواد الحربية.

وعرف عن الفاتح حب العلماء واستقدامهم من البلاد الأخرى، ومن أبرز علماء عصره الشيخ آق شمس الدين، والمولى الكوراني، والمولى خسروا وعلى قوشجي، وخواجه زاده، ومصلح الدين أفندي.

وفي عهد السلطان محمد الفاتح، بدأ ضرب النقود الذهبية، ومن دلالات هذا: غنى الدولة العثمانية، وتسامح هذا السلطان تجاه رجال الدين الأجانب مثال بالغ للدلالة على المفهوم الإسلامي الحقيقي في النظر إلى الأقليات الدينية التي تعيش في كنف المسلمين، وكان هذا التسامح في وقت اشتد فيه الصراع المذهبي في أوربا مما كان يدفع الأوربي للاضرار بمن يؤمن بدينه، ويختلف عنه في المذهب[٢].

---

(١) سبق التنويه إليه (ص٦).

(٢) «العثمانيون» د/ محمد حرب (ص٨٢).

ويعرف المؤرخون المهتمون بعهد الفاتح ـ أن كل حروب محمد الفاتح ـ وهي كثيرة أنها لم تكن تحمل إلا مفهوم الجهاد الإسلامي، ولقد كان فتح القسطنطينية (استانبول) فتحًا عظيمًا، إلا أنه لم يكن هو الوحيد، بل كان للفاتح سلسلة من الفتوح، ولقد لقبته المصادر الإسلامية بلقب أبي الفتح من كثرتها التي بلغت في عددها أن الأراضي التي فتحها كانت تابعة لسبع عشرة دولة[١].

إصلاحاته الداخلية

عندما ارتقى محمد الفاتح عرش الدولة العثمانية بعد وفاة والدة مراد الثاني كان عمره اثنان وعشرون عامًا، بدأ بإصلاحات داخلية؛ هامة نذكر منها ما يلي:

١ ـ إعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة.

٢ ـ عمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ والترف.

٣ ـ قام بتطوير كتائب الجيش وإعادة تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند.

٤ ـ زاد مرتبات الجند وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر.

٥ ـ عمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصيرٌ أو إهمالٌ.

٦ ـ طوَّر البلاط السلطاني وأمده بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة.

* وقد ساهمت هذه الإصلاحات الداخلية في تفرغه لمواجهة الأوضاع السياسية في أوائل عهده ومنها تطلعاته إلى المناطق المسيحية في أوربا لفتحها ونشر الإسلام فيها.

---

(١) «المصدر السابق» (ص٨٢).

الأوضاع السياسية في بداية عهده

كانت أسيا الصغرى في أوائل عهد محمد الفاتح تحت السيطرة العثمانية باستثناء قسم من بلاد القرمان، ومدينة سينوب ومملكة طرابزون، وأضحت امبراطورية البيزنطيين قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها[١]، وفي غير منطقة أسيا الصغرى كان أقليم المورة مقسمًا بين البنادقة وعدة إمارات صغيرة يحكمها حكَّام بيزنطيون أو لاتين.

أما ألبانيا ومنطقة أبيروس، فكانت تحت سيطرة اسكندر بك، أما بلاد البوسنة والصرب فتتمتع باستقلال ذاتي تحت السيادة العثمانية.

وبوجه عام، فإن الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوربية الأخرى كان من أسباب تحقيق أهداف محمد الفاتح، وكذلك الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطق أوربا ومدنها[٢].

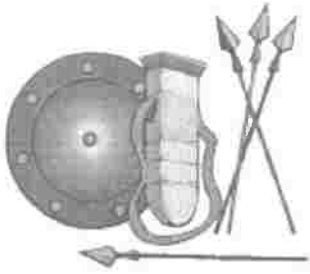

(١) «قصة الحضارة» ول ديورانت، مجلد ٦ (ص٢، ص٣٤) ط. الهيئة المصرية للكتاب.

(٢) «قيام الدولة العثمانية» لعبد اللطيف دهيش، مكتبة النهضة، مكة المكرمة ط١٩٢٥.